٢ - محمود الطناحى .. وتحقيق التراث العربى

أ. عشرى محمد على الغول*

يُعَدُّ الدكتور محمود الطناحى من العلماء القلائل الذين أمضوا حياتهم كلها فى خدمة التراث العربى مطبوعا ومخطوطا ، ويكفِى أن يقف المرء على كتابيه الجليلين «مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى»[١] و«الكتاب المطبوع بمصر فى القرن التاسع عشر»[٢] ليعرف مقدار ما بذله الرجل من جهد فى الكشف عن جهود الأفراد والهيئات فى نشر التراث العربى وإذاعته .

وفى مجال تحقيق التراث يعتبر الطناحى تلميذ مدرسة الرواد من المحققين ، أمثال : محمود محمد شاكر[٣] ، وأحمد محمد شاكر ، ومحيى الدين عبد الحميد ، وعبد السلام هارون ، وغيرهم من شوامخ المحققين الذين أرسوا دعائم المنهج العلمى الرصين فى تحقيق التراث العربى فى النصف الثانى من القرن العشرين .

ولقد طبق الطناحى من خلال عمله فى التحقيق قرابة أربعة عقود من الزمان ذلك المنهج بجدارة فائقة ، الأمر الذى مكّنه من تحقيق عدد من أمهات كتب التراث فى مجالات مختلفة ، ففى اللغة حقّق : «تاج العروس ، شرح القاموس» للمرتضى الزبيدى (المتوفَّى ١٢٠٥هـ) ، (الجزء السادس والجزء الثامن والعشرون) ، وفى النحو : «كتاب الشعر أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب» لأبى على الفارسى (المتوفَّى ٣٧٧ هـ) ، و«أمالى ابن الشجرى» (المتوفَّى ٥٤٢هـ) ، و«الفصول الخمسون فى النحو» لابن معطى (المتوفَّى ٦٢٨هـ) ، و«أرجوزة قديمة فى النحو» لليشكرى (المتوفَّى ٣٧٠هـ) ، وفى الفقه : «طبقات الشافعية» لابن السبكى (المتوفَّى ٧٧١هـ) (بالاشتراك) ، وفى التفسير والحديث : «غريب القرآن والحديث» لأبى عبيد الهروى (المتوفَّى ٤٠١هـ) ، و«النهاية فى غريب

(*) باحث بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة .

(١) نشرته مكتبة الخانجى ، بالقاهرة ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

(٢) نشرته مكتبة الخانجى ، بالقاهرة ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

(٣) كانت تربط الطناحى : بمحمود شاكر علاقة خاصة استمرت أكثر من ثلاثين عاما ، جعلته من أبرز تلاميذه ومريديه ، وأكثرهم قدرة على تطبيق منهجه الصعب فى التحقيق العلمى لكتب التراث ، انظر : عاطف مظهر : محمود الطناحى محقق التراث ، بحث منشور فى كتاب : محمود الطناحى ، ذكرى لن تغيب ، إعداد محمد محمود الطناحى . القاهرة : مطبعة المدنى ، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م ، ص ٩١ .

الحديث والأثر» و«منال الطالب فى شرح الطوال الغرائب» لمجد الدين بن الأثير ، (المتوفَّى ٦٠٦هـ) ، وفى التاريخ : «العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين» لتقى الدين الفاسى (المتوفَّى ٨٣٢هـ) (الجزء الثامن) ، و«أعمار الأعيان» لابن الجوزى (المتوفَّى ٥٩٧هـ) ، و«ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات» لأبى عبد الرحمن السلمى (المتوفَّى ٤١٢هـ) .

وكان الطناحى يرى أن التحقيق العلمى لا يعنِى إخراج الكتاب فقط ، ولكن إقامة النص كما أراده مؤلفه ، وفهم جوانبه والتعليق عليه تعليقا علميا يفيد النص من جانب ، والقارئ من جانب آخر[١] . و«كان يُعطِى الكتاب الذى يعمل فى تحقيقه كل ما يحتاجه من العناية والجد والاجتهاد ، والتأنى والتريث ، وطول البحث ، والتثبت والتوثيق ، بحيث يخرج الكتاب مُبَرَّأً من التصحيف والتحريف ، وعلى الأسس المعتمدة فى تحقيق التراث . وهو يرفض ما يعمد إليه البعض من التعجل فى إخراج وتحقيق الكتب التراثية التى ضنِى بها الأوائل ؛ ولا يحبذ التواثب والركض حولها ؛ بقصد إحراز السبق أو الكسب المادى»[٢] .

وكان الطناحى يؤمن إيمانا عميقا بأن «الخدمة الحقيقية لتاريخنا إنما تكون بإعادة تحقيقه ونشره وفق الأصول العلمية الصحيحة»[٣] . وهذا يتطلب إلماما علميا واسعا بعلوم العربية من لغة وأدب وشعر وفقه وتفسير وحديث وتاريخ[٤] ، ولم يكن الطناحى على علم بهذه المجالات المتعددة فحسب ، وإنما ترك بصماته الواضحة على كلٍّ منها ، فلم يترك مجالا إلا وله فيه كتاب محقق ، ويكفِى أن نعرض لكتاب واحد من الكتب التى حققها ، وهو «كتاب الشعر أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب» لأبى على الفارسى كنموذج ؛ لتوضيح منهج الرجل فى التحقيق .

وبداية تجدر الإشارة إلى أن أكثر الكتب التى حققها الطناحى كانت فى مجال اللغة والنحو ، وإذا كان تحقيق المعاجم من الأمور الشاقة لما يتطلبه من الضبط الجيد ، فإن تحقيق نصوص النحو ، وخاصة ما كان منها لأعلام مثل أبى على الفارسى ، يتطلب جهدا

(١) المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٢) عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان : الأستاذ الدكتور محمود الطناحى عاشق التراث وشيخ التحقيق ، بحث منشور فى كتاب : محمود الطناحى ، ذكرى لن تغيب ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٣) ابن الجوزى : أعمار الأعيان ، مقدمة المحقق محمود الطناحى . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩م ص ١٦ .

(٤) انظر : عاطف مظهر : محمود الطناحى ذكرى لن تغيب ، ص ٩١ .

مضاعفا ، ومعرفة بأصول علم النحو وقضاياه ، ذلك أن عمل محقق المعاجم يكاد ينحصر فى صلب النص ، أما محقق نصوص النحو فيعنى إلى جانب تحرير النص بتخريج الآراء ، وبيان مراد المؤلف ، ومن هنا يتسع مجال القول للمحقق . وهذا ما صنعه الطناحى فى تحقيق «كتاب الشعر» فتجاوزت تعليقاته نص أبى على مرتين أو ثلاثا[١] .

يقع كتاب الشعر لأبى على الفارسى فى خمسمائة وخمس وخمسين صفحة ، تسبقها مقدمة المحقق فى مائة وعشرين صفحة ، ويتلوها مجموعة من الفهارس الفنية صنعها المحقق وبلغت أكثر من مائة وخمسين صفحة ، الأمر الذى يكشف لنا مدى الجهد الذى بذله الطناحى فى إخراج الكتاب . ولا عجب فى ذلك ، فقد كان يرى «أن نبذل من الجهد فى إخراجها (يقصد كتب التراث) ما يقارب ما بُذِل فى تصنيفها»[٢] .

وتعد المقدمات التى كان يكتبها الطناحى لما نشره من الكتب بحوثا أصيلة تحدد أصول المنهج الذى ينبغى أن يلتزم به مَن يضطلع بالتحقيق[٣] . ففى بداية مقدمة هذا الكتاب يؤكد الطناحى على ضرورة وقوف المحقق على نسخ الكتاب موضع التحقيق ، يقول : «وقد عرفتُ نسخته الكاملة (يقصد كتاب الشعر) منذ سبع سنوات ، ولعلى أول مَن وقعت عينه عليها فى هذه الديار المباركة(يقصد مكة) . وكان عهد الناس به نسخة وحيدة ، محفوظة بمكتبة برلين»[٤] .

ثم يتحدث عن أخلاق المحقق وما ينبغى أن يتحلى به من إشاعة العلم بين الناس ، يقول :«كنت منذ اشتغالى بعلم المخطوطات على هذا النهج اللاحب المستتبّ ، لا أطوِى صدرى على ما أعرفه من نوادر المخطوطات التى أراها فى البلدان التى أزورها ، أو ما يسقط إلىّ من أخبارها ؛ فإنى رأيت كثيرا من الذين يكنزون الكتب ، ويغمُّون أمرها على الناس ، لم يُبارَك لهم فيها ، ولم يُمَكِّنُوا من نشرها»[٥] .

---

(١) انظر : محمد إبراهيم البنا : محمود الطناحى محققا ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ٤٣ ، الجزء الأول (صفر ١٤٢٠هـ/ مايو ١٩٩٩م) ، ص ١٩٢ .

(٢) أبو على الفارسى : كتاب الشعر ، مقدمة المحقق محمود الطناحى . القاهرة : مكتبة الخانجى ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م ، ص ب .

(٣) انظر : محمود على مكى : محمود الطناحى أديبا ومحققا . بحث منشور فى كتاب : محمود الطناحى ذكرى لن تغيب ، ص ٢٢٦ .

(٤) أبو على الفارسى : كتاب الشعر ، مقدمة المحقق محمود الطناحى ، ص أ .

(٥) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

وبعد ذلك يشرع الطناحى فى عرض تجربته فى تحقيق كتاب الشعر ، منبها على أن تحقيق التراث ليس مركبا سهلا ؛ وإلا أصبح تراث الأمة نهبا لكل مجترئ ، وإنما لا بد من خطوات ومراحل يمر بها الكتاب المخطوط حتى يخرج إلى النور . ومن الضرورى أن يبذل المحقق في هذه الخطوات قصارى جهده ؛ ليخرج الكتاب المحقق بالصورة التى أرادها له مؤلفه ، وتتمثل تلك الخطوات فيما يلى : ـ

١- مرحلة نَسْخ الكتاب :

يقول الطناحى عن هذه المرحلة : «وكان ما كان من أمرى مع هذا الكتاب : أنى نسختُه بقلمى ، وأطعمتُه لحمى ، وأسقيتُه دمى»[١] . وهو يذكر هذا مع علمه بما آل إليه أمر النَّسْخ حيث إن كثيرا من المحققين يعهدون بنسْخ الكتاب إلى أبنائهم أو بناتهم ، وناهيك عن النُّسّاخ المحترفين الذين يأكلون النَّسْخ[٢] .

٢- مرحلة المقابلة بين النُّسَخ والتعليق على متن الكتاب :

وبعد أن ينتهى المحقق من نسْخ النسخة الأم يبدأ فى المقابلة بين النُّسَخ الأخرى للمخطوط ، وفى ذلك يقول الطناحى : «وحين عزمت على نشره (يقصد كتاب الشعر) وإذاعته ، استعنت الله عز وجل ، ثم أخذتُ أخْذه ، وأعددت له عُدَّته . . . وقابلت بين نسختيْه ، ثم التمست موارده فى كتب السابقين ، وتتبَّعت نُقوله فى كتب الخالِفين . . . وقد حرصت على ربط قضايا الكتاب ومسائله بالمُتاح لى من كتب أبى على : مطبوعها ومخطوطها ، ثم وصْل هذه القضايا بكتب النحو»[٣] .

وهو هنا يبين ما ينبغى أن يتقنه المحقق من صناعة التحقيق من ناحية ، وما يلزمه من ثقافة فى العلم الذى ينتمى إليه المخطوط من ناحية أخرى ، حيث شرع فى بيان المنهج القائم على معالجة النصوص النحوية وتوثيقها وعرضها على كتب النحو الأخرى ، ذلك المنهج الذى قصرت دونه حبال الكثيرين من أدعياء التحقيق[٤] .

والطناحى فى هذا المنهج يترسم نهج شيخه الأستاذ محمود محمد شاكر ، الذى كان لا يمرر نصا مُشْكِلا دون أن يتوقف عنده ، ويقول فيه ما بدا له من الرأى ، ولا نرى له فى

(١) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(٢) المصدر السابق ، هامش صفحة ج .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .
(٤) انظر : تركى بن سهو العتيبى : الليلة الأخيرة . بحث منشور فى كتاب : محمود الطناحى ذكرى لن تغيب ، ص ٤٢ .

ذلك نظيرا ، فكثير من المحققين يطيلون القول أمام النصوص المحكمة ، ويدَعون القارئ حيران أمام متشابهها[١] .

بقى أمر مهم يذكره الطناحى مستنكرا ما يفعله البعض أثناء شرح نص المؤلف ، يقول : «لا بأس من التهويش ببعض الشروح اللغوية التى تعبُّ من المعاجم عبا . وكثيرا ما يقع فى نقل هذه الشروح أخطاء فادحة ؛ لعدم التنبه للمشترك اللفظى»[٢] .

٣- مرحلة تخريج الشواهد :

وعمل المحقق فى هذه المرحلة يقوم على تخريج ما ورد فى نص المؤلف من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، وشواهد شعرية ، وغير ذلك ، ويعيب الطناحى على النماذج الرديئة التى يخرج بها التراث فى هذه الأيام ، والاكتفاء بتخريج الآيات القرآنية من معجم محمد فؤاد عبد الباقى ، والأحاديث من المعجم الذى صنعه المستشرقون ، والشعر من كتاب شيخنا عبد السلام هارون[٣] .

أما هو فله أسلوبه الذى يسير عليه فى التخريج ، فالخطوة الأولى فى تخريج الشواهد الشعرية عنده أن تَرُدَّ الشاهد «إلى ديوان الشاعر - إن كان الشاهد معروف النسبة - لتتأكد من وجود الشاهد فى ديوان الشاعر ، بهذه الرواية التى سِيق بها فى كتابك الذى تحققه ، فإذا لم يكن الشاهد منسوبا لقائل ، تضاعفت مهمتك ، فكنتَ مطالبا بمعرفة قائله ، وتحقيق الرواية التى يدور حولها الشاهد . وأنت فى الحالتين مطالب بالرجوع إلى طائفة من كتب النحو ، سابقة على كتابك وتالية له ، لتوثيق الشاهد»[٤] .

وهذا ما فعله الطناحى فى تخريج شواهد كتاب «الشعر» ، ولذلك تراه يقول : «وجردت شواهده ، واصطحبتُها فى حلى وترحالى ، أعرضها على ما أعرف من المكتبة العربية»[٥] .

ومعنى هذا أنه لم يكن يكتفِى بتخريج الشاهد من كتب النحو فحسب ، وإنما قد يلجأ إلى المكتبة العربية بمختلف مؤلفاتها ، وهو ما تجده واضحا فى قوله : «فهذا هو الحد الأدنى من تخريج الشاهد الشعرى . وقد تكفَّل شيخنا العلامة عبد السلام هارون بالوفاء بهذا

---

(١) انظر : محمد إبراهيم البنا : محمود الطناحى محققا ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ٤٣ ، الجزء الأول (صفر ١٤٢٠هـ/ مايو ١٩٩٩م) ، ص ١٩٢ .

(٢) أبو على الفارسى : كتاب الشعر ، مقدمة المحقق محمود الطناحى ، ص ج .

(٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٤) المصدر السابق ،ص ١٠٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

الجانب فى كتابه الرائد «معجم شواهد العربية» ولكن شيخنا لم يقل لك : حسبُك هذه المراجع التى ذكرتُها ، ولا تَعْدُ عيناك عنها . إن تخريج الشاهد النحوى ينبغى أن يُسلَكَ به مسالك كتب العربية كلها : من نحو وبلاغة ولغة وعروض وأدب وتفسير وحديث ، وستجد فى تعليقاتى - حين تأتى قراءتك عليها إن شاء الله - إحالاتٍ على كتب هى فى تصنيف الناس خارجة عن كتب النحو ، مثل الأغانى ، ورسالة الغفران ، وشروح الحماسة ، وشرح النقائض ، وشرح المفضليات ، وشروح دواوين الشعر ، والمجاميع الأدبية ، وكتب الجغرافيا والبلدان ، والتاريخ والتراجم ، والمعارف العامة ، بل إنك واجد شيئا من كتب أصول الفقه»[١] .

٤- مرحلة صنع الفهارس الفنية :

كان الطناحى يرى أن كتب التراث بلا فهارس أو كشافات هى كنوز بلا مفتاح ، وهو لا يقصد بالفهارس «صنع فهارس تقليدية ميتة باردة»[٢] ، وإنما يقصد «الفهرسة العلمية الفنية ، ولستُ أعنى مجرد تلك الفهارس التقليدية المألوفة ، مثل فهارس الأعلام والقبائل والمواضع والشواهد ، وإنما أريد - إلى جانب ذلك - فهارس العلوم والفنون المختلفة ، وحوادث الأيام المبثوثة فى ثنايا الكتاب المحقق ، بضم النظير إلى النظير ، وقَرْن الشبيه إلى الشبيه ، وستكون هذه الفهارس الفنية الكاشفة عُدَّة وعونا للدراسات والبحوث التى لا تقوم إلا على النص الموثق المحرر»[٣] .

ومن يطالع فهارس كتاب «الشعر» يجد أنواعا لم تؤلف من قبل ، ولا يستغنِى عنها من يريد الإفادة من الكتاب ، وتضم هذه الفهارس :

١- فهرس مقدمة التحقيق .

٢- فهرس أبواب الكتاب .

٣- فهرس الآيات القرآنية .

٤- فهرس الأحاديث النبوية القولية والفعلية .

٥- فهرس الأمثال .

٦- فهرس الأساليب والنماذج النحوية واللغوية .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٧ ، ١٠٨

(٢) المصدر السابق ، ص ج .

(٣) ابن الجوزى : أعمار الأعيان ، مقدمة المحقق محمود الطناحى ، ص ١٧ .

٧- فهرس الأمثلة والأبنية والصيغ .
٨- فهرس اللغة التى شرحها أبو على .
٩- فهرس الأشعار وفهرس أنصاف الأبيات وأجزاء الأبيات .
١٠- فهرس الأعلام والقبائل والأمم والفِرَق والطوائف ، وفيه أيضا : أيام العرب ، وأسماء الخيل والأصنام .
١١- فهرس الأماكن والبلدان .
١٢- فهرس مسائل النحو والصرف ، ويشمل أيضا : الحروف والأدوات والمصطلحات .
١٣- فهرس البلاغة .
١٤- فهرس العروض والقافية .
١٥- فهرس ضرائر الشعر .
١٦- فهرس معانى الشعر ، ويشمل أيضا الإنسان وما يتصل به ، والخيل والإبل وسائر الحيوان ، والحرب وآلاتها ، والكون والطبيعة .
١٧- فهرس الكتب التى ذكرها أبو على .
١٨- فهرس مراجع التحقيق .

وقد اهتم الطناحى اهتماما فائقا بتوثيق بيانات المصادر والمراجع التى ذكرها ، وحرص على توثيق عنوان الكتاب ، ونسبته إلى مؤلفه . ومن الأمثلة على ذلك أنه عندما ذكر كتاب «سمط اللآلى» لأبى عبيد البكرى قال : «هذه تسمية الميمنى ، أما كتاب البكرى فاسمه : اللآلى فى شرح الأمالى ، أمالى أبى على القالى»[١] ، وأنه عندما ذكر السيرة النبوية لم يقل : السيرة النبوية لابن هشام ، كما هو مطبوع ، وإنما قال «السيرة النبوية لابن إسحاق . رواية وتهذيب ابن هشام»[٢] .

رحم الله الدكتور محمود الطناحى ، فقد كان بحرا يفيض بالعطاء ، وأخرج لنا كنوزا من أمهات كتب التراث ، وأعطى صورة مُشرِّفة للدور الذى يقوم به المحقق ؛ فاستحق أن يظل حيًا فى ذاكرة المثقفين من أبناء العربية .

(١) أبو على الفارسى : كتاب الشعر ، ص ٦٩٣ .
(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها ، وانظر : محمد إبراهيم البنا : محمود الطناحى محققا ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ٤٣ ، الجزء الأول (صفر ١٤٢٠هـ/ مايو ١٩٩٩م) ، ص ١٩٣ .